الشخصية بين النموذج المناضل والمضاد في رواية (خطوات في الاتجاه الآخر) لحفناوي زاغز

الأستاذ الدكتور: فورار أمحمد بن لخضر
الأستاذة : ربيعة بدري
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة- (الجزائر)

ملخـــص:

يهدف هذا المقال إلى التعرف على بعض نماذج الشخصيات الروائية، وذلك في رواية "خطوات في الاتجاه الآخر" لحفناوي زاغز ، فكان هناك نموذج المناضل الذي يكافح و يدافع عن حقوق الإنسان المهضومة وتمثل في بطل الرواية.

والنموذج المضاد الذي يعد الشخصية المناوئة والمضادة التي تعرقل رغبة ومسار الشخصية المناضلة، وتمثل في الرواية في المنظمة الإرهابية.

ABSTARCT:

This paper aims at exploring a number of archetypal patterns of fictional characters in Lehafnoui Zaghez's novel Steps on the other Direction. On one hand, there is the archetype of the political activist, the novel's protagonist, who campaigns for the recovering of usurped human rights. On the other hand, one may detect the opposite archetypal character, i.e. the antagonist. The latter is a character who hampers and stands against the protagonist's efforts and desires. In fact, this archetype of character is embodied by the terrorist organisation in the novel.

.

مقدمة :

إن الشخصية عنصر أساسي ومكون من مكونات العمل الروائي، فهي التي تنهض بالحدث وتجعله ينمو عبر المسار السردي مما جعل رولان بارت (BARTHES ROLAND) يقر" بأنه ليس ثمة قصة واحدة في العالم من غير شخصيات " 1 . و يبدو أن طبيعة الدور الذي تنهض به الشخصية يسهم في بنائها أيضا، حيث تنضج بفعل الحدث الذي تمارسه داخل القصة، إلا أن توظيف الروائيين لكثير من الشخصيات جعلها تختلف من حيث درجة تواترها في النص، مما جعل النقاد يختلفون أيضا في تقسيم وتصنيف هذه الشخصيات إلى فئات مختلفة، حيث كانت هناك تصنيفات كثيرة لا نستطيع أن نلم بها جميعا، وسنحاول في هذا المقال التعرف على بعض نماذج الشخصيات الروائية وذلك في رواية "خطوات في الاتجاه الآخر" لحفناوي زاغز، التي تصنف شخصياتها على حسب النماذج التي تتوفر عليها وبحسب درجة تواتر حضورها في النص السردي .

وفيما يلي سنذكر تصنيفات بعض النقاد للشخصية :

أ- تصنيفات فلاديمير بروب (VLADIMIR PROPP) : اعتمادا على الوظائف التي تقوم بها الشخصيات في الحكايات، التي حددها بإحدى وثلاثين وظيفة، و رأى أن الشخصيات الأساسية تنحصر في سبع شخصيات: المعتدي (الشرير) والواهب والمساعد والأميرة والباعث والبطل والبطل الزائف2 . حيث يمكن لهذه الشخصيات أن تحضر في جميع الحكايات وأن تقوم بتأدية تلك الوظائف مع فارق بسيط في أسمائها وأوصافها.

ب- تصنيفات غريماس (GREIMAS): انطلاقا من أبحاث بروب جاء غريماس بالنموذج العاملي فأطلق على الشخصية اسم العامل*، وحددها في ستة عوامل هي: المرسل والمرسل إليه والذات والموضوع، والمساعد والمعارض3

ج- تصنيفات تودوروف (TZVETAN TODOROV) : الذي يقسم الشخصيات حسب الوظيفة التي تؤديها كل شخصية، وهي :

- ***الشخصية العميقة :*** التي تتوفر على أوصاف متناقضة وهي شبيهة بالشخصيات الدينامية.

• ***والشخصية المسطحة :*** التي تقتصر على سمات محدودة، وتقوم بأدوار حاسمة في بعض الأحيان4 . والشخصية العميقة متطورة وحركية أما المسطحة فهي ثابتة ولا تتغير.

د- تصنيفات حسن بحراوي: الذي صنف الشخصيات إلى ثلاثة أنواع :

أولا نموذج الشخصية الجاذبة : وجعلها تتمثل في نموذج الشيخ، والمناضل، والمرأة،

ثانيا : نموذج الشخصية المرهوبة الجانب : التي تتمثل في نموذج الأب والإقطاعي والمستعمر

ثالثا : نموذج الشخصية ذات الكثافة السيكولوجية وقسمها إلى نموذج اللقيط، ونموذج الشاذ جنسيا، ونموذج الشخصية المركبة5. كان تقسيمه بحسب علاقاتها وتصرفاتها فتكون إما جاذبة أو مرهوبة الجانب، أو خاضعة لعواملها النفسية .

- ***تصنيفات فيليب هامون (PHILIPPE HAMON):*** وهي ثلاث فئات6 :

- ***فئة الشخصيات المرجعية :*** وتدخل ضمن هذه الفئة الشخصيات التاريخية (نابليون عند ألكسندر دوما)، والشخصيات الأسطورية (فينوس، وزوس)، والشخصيات المجازية (الحب، والكراهية)، والشخصيات الاجتماعية (العامل، والفارس، والمحتال)، والمرجعية تحيل على الواقع الخارجي أو السياق الاجتماعي والتاريخي مما يدل على ثقافة المبدع .

- ***فئة الشخصيات الإشارية :*** هي دليل على حضور المؤلف أو القارئ أو من ينوب عنهما في النص، كالشخصيات الناطقة باسمه في التراجيدي والمحدثون السقراطيون والشخصيات العابرة كالرواة مثلا .

- ***فئة الشخصيات الاستذكارية :*** تتعلق بالنسق الخاص بالعمل وهو كاف لتحديد هويتها حيث تكون وظيفتها تنظيمية ترابطية، تنشط ذاكرة القارئ، وهي شخصيات للتبشير كالحلم، والاعتراف .

وننبه إلى أن تصنيفات فيليب هامون تحيل على الواقع غير النصي، وتوظيفها في العمل الأدبي يدل على مدى سعة ثقافة المبدع .

تصنيف الشخصيات في الرواية :

مع أن رواية " خطوات" تحتوي على كثير من الشخصيات إلا أننا سنقتصر على الشخصيات المحورية التي تقود الحدث السردي وتشكل طرفي الصراع .

1- نموذج المناضل :

وهو الذي يكافح ويدافع عن حقوق الإنسان المهضومة، بفعل السيطرة الممارسة عليه من طرف نموذج معاكس لمبادئه .

والشخصية المناضلة عبارة عن « نماذج خلقها الروائي، وحملها مضامين وأفكارا تحارب بها سلبيات الواقع قصد الانتقال بهذا الواقع من حالة الانغلاق إلى حالة أخرى أكثر تفتحا وإنسانية، ومن ظروف السيطرة والكبت إلى ظروف الحرية والمساواة »7 .

فنموذج المناضل يجعله الروائي يؤمن بمبادئ يريد تحقيقها في واقعه المتأزم وفي ظل ظروف قاسية حتى يمنح الحرية والمساواة لجميع أفراد وطنه وأمته جمعاء. ويسمي حسن بحراوي هذا النوع من النموذج بالسلطة النضالية ويقصد به « الوعي السياسي الذي يتوفر عليه المناضل، ويضعه في خدمة قضايا الناس وسبيلا إلى تنوير عقولهم »8 .

فهو إذن نموذج يمتلك سلطة تمكنه من حمل وعي سياسي يناضل ويدافع به عن حقوق الناس، وقد يستعمله في هدايتهم حتى يستقطب اهتمامهم، مما يجعله مصدرا تنجذب إليه كل فئات المجتمع، كما حدث ذلك مع "نجم الدين" بطل رواية "خطوات" الذي أصبح بحكم منصبه في لجنة مكافحة الإرهاب مصدر اهتمام بالنسبة للمنظمة.

وبذلك نجد أن نموذج المناضل في رواية "خطوات" يتمثل في شخصية نجم الدين وهي شخصية دينامية تدور حولها الأحداث من بداية الرواية إلى نهايتها، وهو الحامل للفكرة التي يريد إبلاغها، والمعبر عن معطيات الواقع في الفترة التاريخية التي وجد فيها وكل ذلك للإفصاح عن انتمائه الحقيقي9 .

جعل الروائي البطل نجم الدين الشخصية المحورية الذي تدور حوله كل الشخصيات وترتبط به أحداث الرواية، وهو يمثل فئة المناضلين الذين يدافعون عن توجهاتهم الإيديولوجية التي هي في خدمة الناس وتدافع عن قضاياهم .

وهذا ما تشهد به المنظمة في الطلب الذي بعثته إلى نجم الدين للانضمام إليها: « لقد ارتأت قيادة تنظيمنا السري ترشيحك للعضوية فيه بعد تأكدها من سلامة طويتك ونبالة توجهاتك ووطنيتك، كما قد حفزهم إلى انتقائك، مما تتسم به من بساطة وتواضع، ومحاباة للكادحين، وتعاطف مع الفئات المسحوقة، إضافة إلى شدة نقمتك وسخطك على الطغاة والمرتشين والظلاميين »10. حيث تقر المنظمة السرية بحرص نجم الدين على الوقوف ضد كل من يهضم حقوق الإنسان، وسخطه على كل من يسهم في ذلك مما يؤكد حرصه ونضاله ضد الطغاة .

ويظهر نضال نجم الدين ضد كل من يمارس العنف وخرق القوانين أو تجاوز حقوق الإنسان، في قوله عند مساعدته لصديقه عبد السلام: «...لقد زارني صباحا أحد مسؤولي أجهزة مكافحة الإرهاب لاستشارتي في أمر ما، وكانت الفرصة مواتية لإحاطته بالذي سيحدث...وأعلنت عن وجهة نظري التي تتجسد في الملاحظة من بعيد لتحديد هوية الذي سيستلم المبلغ، ليتأتى فيما بعد اتخاذ الإجراءات التي تكفل سلامة وأمن المواطنين »11.

سعى نجم الدين وبمساعدة المسؤولين باللجنة المتخصصة بمكافحة الإرهاب إلى التعرف على نوعية المنظمة التي توجهت للصديق بطلب المال، حتى يضمن سلامة المواطنين .

بحكم منصب النموذج المناضل يظهر أنه شخصية مثقفة واعية تعمل على محاربة كل أشكال العنف الممارسة ضد الإنسانية، وهذا ما يؤكده قوله: « تم إشعاري من لدن الجهة المسؤولة بضرورة الإعداد والتأهب للمساهمة في مؤتمر هام سينعقد في منتصف الشهر الموالي...لدراسة أبعاد العنف المنظم ذي الطابع السياسي ومدى خطورة تبعاته على الأمن والاستقرار في الدول العربية »12. نجد نجم الدين يكافح كل أعمال العنف التي تتعرض لها الدول العربية لتوفير الأمن والاستقرار، والبحث عن الحرية والكرامة الإنسانية .

يمثل البطل جيلا من المثقفين بأكمله المناضلين ضد العنف، حيث يسهم في النضال من أجل البحث عن الديمقراطية والعدالة والحرية أي حماية الحقوق الإنسانية 13 .

ومع أن الشخصية المناضلة تقدم « بصورة مكتملة منذ ظهورها الأول بحيث لا يتوقع القارئ تغيرا في تفكيرها وسلوكها مع تتابع الأحداث بل تظل ثابتة على موقفها الذي

رسمه لها المؤلف»14. إلا أننا نجد البطل نجم الدين قد أعلن عن انضمامه للمنظمة في لحظة ضعف أجبر فيها على ذلك «إنني بإذنه تعالى سأناضل من أجل الارتفاع بقدراتي إلى مستوى ثقة الإخوان فيّ» 15 .

فرغم عمل نجم الدين وثقافته إلا أنه عجز عن رفض الانضمام وأعلن قبوله في لحظة ضعف، وهو لا يدرك كيف حصل ذلك، فتظهر هنا معاناة المناضل والمثقف الذي دفع بنفسه من النقيض إلى النقيض «ما هكذا ينبغي لك يا نجم أن تقذف بنفسك من النقيض إلى النقيض، بالأمس كنت من عتاد المناضلين ضد الإرهاب، وإذا بي اليوم أجدني في صميم بؤر منظريه والعاملين على تطويره وتعميق محتواه... » 16 .

حيث يشعر نجم الدين بالأسى على اتخاذ قرار مثل قرار الانضمام، كيف لا؟ وهو المناضل بالأمس. واليوم يجد نفسه من أعضاء الجماعة الإرهابية، وهو الذي لا يقوى على فعل ما تقوم به المنظمة .

وقد لجأ الروائي هنا إلى عرض صور الإنسان (المجتمع) من خلال هموم نجم الدين النضالية بكل أبعادها، حتى في لحظات ضعفه المشروعة، ونسجها نسجا واقعيا دقيقا17.

فضعف البطل نجم الدين هو ضعف كل إنسان، أو بالأحرى هو ضعف المجتمع بأكمله ظهر من خلال معاناة البطل، معاناة الإنسان الواقعية في ظل فترة متأزمة هي فترة العشرية، لأن انكسار المناضل بتحوّل مبادئه وانضمامه إلى المنظمة الإرهابية، دلالة على رؤية متجاوزة للسائد في كثير من النصوص المتعاملة مع قضية الكفاح الوطني18 .

والنموذج المناضل نجم الدين رغم انكساره وإحساسه بالضعف لقبول الانضمام يبقى النموذج الذي يحمل الإيديولوجية الإيجابية من خلال إصراره على الكفاح ضد القوى التي تمارس العنف في كل الوطن العربي: «فعلا تلك هي أمنيتي أن أقاتل بكل ما أملك أو أستطيع الحصول عليه، محتلا لوطني أو أي وطن عربي، لأننا أمة واحدة انتماؤها العروبة ودينها الإسلام، لذلك سأهب نفسي فداء لوطن تمتد جذوري منه وتنتمي أرومتي إليه»19.

فنجم الدين يتمسك بمبادئه بالرغم مما يعانيه في ظل ظروفه الصعبة، من أجل النضال والدفاع عن الكرامة الإنسانية ضد كل من يمارس العنف على الوطن العربي .

يبدو أن نجم الدين صورة للفرد العربي الذي يعيش واقعا متأزما في لحظة تاريخية مليئة بالخوف والقمع والقهر، فيدافع عن الروح الوطنية والإنسانية؛ ذلك كونه «بطلا هو مفرد في جمع وجمع في مفرد، يصبح البطل تجسيما لمجرد هو روح الأمة، ويجد الروح القومي المجرد طريقه إلى التاريخ عبر الشخصية المحددة»20. فيمثل نجم الدين المجتمع العربي بأسره، ذلك لأن الوعي الفردي يعبر عن الوعي الجماعي من أجل تحقيق حياة أفضل، قوامها العدل والمساواة والحرية .

ومع حضور نجم الدين بطل رواية "خطوات" نموذج مناضل يشكل طرفا في الصراع، فلا بد من حضور الطرف الآخر وهو الطرف المعاكس، وقد وجدنا أنه يتمثل في المنظمة الإرهابية التي تعرقل مسار نجم الدين وباقي الشخصيات، ولهذا يصلح نعتها بالنموذج المضاد.

2- النموذج المضاد :

وفي المقابل نجد النموذج المضاد، وهو الشخصية المناوئة المضادة والتي يسميها بورناف (BOURNEUF) القوة المعاكسة، التي تعرقل تحقق رغبة الشخصية الدينامية فتقف في مواجهتها وتجابهها، بل تمثل القوة الضاغطة على النموذج المناضل بكل وسائل التهديد21 .

حيث تعمل الشخصية المناضلة –كما ذكرنا آنفا-المتمثلة في نجم الدين على مكافحة كل أشكال العنف وخاصة ما يمارسه الإرهاب، وهنا تعمل المنظمة على عرقلة عمله وتحول دون تنفيذه، ويتجلى ذلك في طلبها من نجم الدين الانضمام إليها: «لقد ارتأت قيادة تنظيمنا السري ترشيحك للعضوية فيه بعد تأكدها من سلامة طويتك ونبالة توجهاتك ووطنيتك... ومهما تكن الحالة التي أنت عليها في الوقت الراهن فإياك أن تبادر بالرد السلبي» 22 .

منذ الصفحات الأولى للرواية يظهر اختيار المنظمة لنجم الدين بالانضمام إليها مع تأكدها من نبالته ومحاربته لكل أشكال العنف، مستغلة في ذلك منصبه كونه عضوا في لجنة مكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية وهو منصب حساس ضمن النظام السلطوي، فترى أن بيده زمام الأمور، بل تعمل على تهديده من الرد السلبي، أي بضرورة إعلان الموافقة

بالانضمام، حيث توجهت المنظمة إلى شخصية تعد من الدرجة الأولى أنه باستطاعتها اتخاذ القرارات اللازمة مما يمكنها من امتلاك القدرة على التغيير، فتمارس المنظمة أفعالها دون ضجيج .

ومن هنا بدأ الصراع، ذلك لأنها «الطرف الفاعل في هذه العلاقة والذي تمثله الشخصية التي تتصرف من موقع قوة ما، وتعطي لنفسها حق التدخل في تقرير مصير الفرد أو الأفراد الذين تطالهم سلطتها»23. فيعني أن النموذج المضاد أو بالأحرى المنظمة تعمل على السيطرة وفرض سلطتها، وتتصرف انطلاقا من موقع قوة ما يخولها لذلك، فتتمكن من التحكم في مصير كل فرد وبالاعتماد على وسائل تهديد متنوعة.

كل ذلك يؤكد أن المنظمة تمارس كل أنواع القهر وبأنماطه المختلفة النفسية والجسدية24، فكما عملت بالضغط على نجم الدين بالانضمام إليها، تضغط عليه بأن يمارس عملياتها المتمثلة في الاغتيال. «إنما المقصود هذه المرة القضاء على أربعة أشخاص لأنهم كفرة، ملاحدة، مفسدون في الأرض، متفانون في خدمة الطاغوت فكأنما استبدلوا عبادة الله بعبادته، فهم بذلك مشركون دماؤهم وأموالهم حلال» 25 .

فالمنظمة تضغط على نجم الدين لممارسة فعل القتل، قتل أربعة أشخاص (شرطي وجندي ودركي وصحفي) وهم أشخاص مسالمون يقومون بالسهر على سيادة الأمن في البلاد، ونجد أن كل هؤلاء من الطبقة المثقفة، والمنظمة تريد القضاء عليهم من طريق نجم الدين لتدعم بها مركزها وسلطتها، وحتى لا يسهم كل منهم في حماية المواطنين والرقي بالبلاد لنشر الحرية والعدل .

ويظهر أن المنظمة تمارس أفعال العنف والشر وتحاول فرض سلطتها، حيث يتضح منهجها في الحياة، وهنا تكمن الإشارة إلى التحول في القيم لدى النموذج المضاد، حيث تسعى إلى تحول المناضل من عامل نبيل يناضل من أجل قضايا نبيلة ضد الظلم، إلى فاعل ينتج الفساد والظلم معا26، حتى تكسبه إلى جانبها وتدعم به أعمالها فلا تتعرقل مشاريعها من أفعال الدمار والتخريب، بهدف الاستيلاء والسيطرة على السلطة، فيعم الفساد

بالنظام العام، حيث تتمكن من اكتساب كل شيء دون حسيب أو رقيب، وتلبى بذلك مصالحها وغاياتها الذاتية .

ومن بين ملامح القهر انتهاز المنظمة واستغلالها لمنصب عبد السلام صديق البطل نجم الدين، كونه المدير العام لشركة التوريد والتصدير، إذ بعثت له برسالة «تتضمن الرسالة المطالبة بتسديد مبلغ ضخم كمساهمة في دعم الجهاد»27. فيظهر أنها تمارس قهرا ماديا، لطلبها المبلغ الضخم حتى تدعم به وتمول أعمالها باسم الجهاد، إذ تتخذ من شرع الله ورسوله قناعا تخفي وراءه أفعالها .

وقد يمارس النموذج المضاد القهر الجسدي، فيلجأ إلى القتل، ولا يخفي طبيعته الانتهازية والاستغلالية، وتجلى ذلك لما طلبت المنظمة من الرائد جعفر تزويدها بالسلاح مستغلة منصبه كونه المسؤول الأول عن مخزن السلاح والذخيرة بالمؤسسة العسكرية، مع تهديدها له إن لم يستجب لطلبها، ونفذت تهديدها فوقع القتل على يد سعد ابن أخ الرائد ذلك لأن النموذج المضاد «لا يتوانى عن استغلال ضعف أبناء جلدته استغلالا فاحشا لا يفرق بين قريب أو بعيد، الكل يساوي مصالحه ومنافعه» 28 .

أي إن النموذج المضاد يقوم بأي عمل، والمهم هو أن تلبى مصالحه ومطالبه، فهو لا يفرق حتى بين القريب والبعيد حيث يتعرض لهم بأفعاله العنيفة .

وعندما كانت المنظمة لا تريد سوى تلبية حاجياتها، فإنها تقوم بعمليات القتل؛ لأن الذي لا يلبي مطالبها يعتبر خائنا، وهذا ما قام به سعد: «استخرج سعد مسدسا وهو يقول: ...أجلك انتهى كما قررت القيادة ومصيرك الجحيم أيها الكافر الملعون أنت ومن تبعك لأن عدم الاستجابة للمنظمة خيانة...أطلق سعد رصاصتين على عمه، فارتمى خالد ليبعد خطر الموت عن أمه وأخته، لكن سعدا لم يمهله إذ أفرغ فيه رصاصتين ثم ألحق الأم بهما»29.

تظهر هنا مدى بشاعة هذه الجريمة التي وقعت على يد قريب من العائلة، (سعد) الذي قام باغتيال عمه وعائلته، الذي اعتبر خائنا لعدم استجابته للمنظمة، فلا يهم سعد إذن سوى تلبية مطالب الجماعة .

نجد أن سلوك الجماعة هو السلوك العنيف، فلا تظهر في النص إلا وهي مرتبطة بفعل العنف الموجه لمن يختلف معها أو يخالفها30. حيث تجد في العنف لذة ترهب به الناس حتى وهم في بيوتهم مما يضطرها إلى فعل الاقتحام .

مثلما حدث مع أسرة الحاج محي الدين لما جاء زائرا يسأل عن ابنه الضابط سليمان، فأخبره الحاج بأنه عاد إلى الثكنة وقام بواجب الضيافة، لكن الزائر قام بتكذيبه فحدث فعل الاقتحام: «لما وصل الأمر إلى هذا الحد من سوء التفهم وقلة الاحترام، هم الحاج أن يغلق الباب في وجه الزائر، وفي تلك الأثناء تدخل أربعة شبان كانوا على مقربة منها، فاقتحموا عليه المنزل عنوة، أوصدوا الباب بالرتاج...فتشوا المنزل غرفة غرفة...»31 فيظهر هنا مدى العنف في المعاملة الذي تظهره الجماعة، فلا تحترم الآخرين في بيوتهم حينما قامت بتكذيب الحاج، وهو إنسان تقي واقتحمت عليه البيت عنوة .

بل قام رجال المنظمة بتهديد الحاج إن لم يدلهم على مكان ابنه بقول أحدهم: «اسمع أيها العجوز الأخرق إن لم تدلنا على مكان ابنك خادم الطاغوت أو تأمره هاتفيا بالحضور الفوري إن كان كما تدعي خارج المنزل...فإن مصيركم جميعا الهلاك الماحق»32، نرى من هذا التهديد سلوكا فيه ترهيب و وعيد وعنف غير مبرر، عندما قامت الجماعة بتكذيب الحاج، واعتبرت الضابط ابنه في خدمة الطغاة وهو يعمل لحماية الوطن، وبذلك فهؤلاء يخالفون الجماعة، وفي تلك اللحظة أمر أحدهم رفاقه بقتلهم :

«...وهنا صاحت الأم تستنهض شجاعة أب سليمان الذي هب كالثور المطعون ليرتمي على الذي شرع في ذبح الرضيعة، لكن الآخر عالجه بطعنة قاتلة ثم أجهزوا على الأم خلال ثوان ولم يثنهم استرحام بثينة ليغدقوا عليها النجاة، بل أجهز أحدهم عليها بتبجح»33. فتظهر هنا قمة العنف في قتل هؤلاء الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى أنهم ينتمون للشخص الذي يبحثون عنه، مع أنه بريء أيضا إلا لأنه موظف لحماية الوطن والمواطنين .

كما يظهر السلوك العنيف للجماعة عند اقتحام بيت حمدون الأجنف أحد مذيعي القناة الوطنية والمقيم مع أمه وأخويه حيث: «سمع طرقا على الباب...ما إن واريت (الأم) الباب حتى اقتحم اثنان عليها البيت وأوصدا خلفها الباب، فأنشده الشاب المسالم

وصاح...ما الأمر أيها الأخوين؟ فكانت الإجابة طعنة قاتلة...لم تتمالك الأم وهي ترى رجل البيت وفلذة كبدها يتخبط في دمائه أن ألقت بنفسها على القاتل وهي تعول وتندب وتصرخ...لم يمهلها الثاني الذي ارتأى أن يرديها هي الأخرى خشية التعرف عليهما في مرحلة التحقيق» 34 .

حمدون شاب مسالم اغتالته المنظمة ووالدته، وهو لم يقم بأي عمل مشين بل بالعكس من ذلك، حيث يعمل لإفادة الوطن والمواطنين وتزويدهم بالأخبار اللازمة والمنظمة ترى أنه معرقل لمسارها ولهذا تعرضت له بالقتل .

نلاحظ أن كل الشخصيات التي تنتمي لهذا النموذج (المنظمة) تنجز حدث القتل وتكشف عنه كفعل أساسي يشكل كيانها، ويقود الشخصيات الأخرى نحو مصيرها الموت مما يعبر عن العنف والتطرف في سلوكها، فهي تحسب نفسها مصلحة وليست قاتلة بحجة الدفاع عن الدين، وهو فعل يغيب فيه البعد الإنساني، وترى أن كل من يخرج عنها أو يخالفها فهو عاص ويستحق القتل35. ولذلك تقوم بقتل أولئك الأبرياء بحجة الدفاع عن الدين، وترى أنهم أناس كافرون ولايعرفون الشرع، وهي بذلك تعتقد أنها مصلحة وطريقها هو الصحيح، وإنما منهجها هو منهج متطرف لأنها تفسر الأمور كما ترى هي لا كما يرى الدين، ولأن الدين لا يأمر بقتل الأبرياء .

وهذا ما حدث أيضا مع الأستاذ الجامعي نوفل الرحموني الذي خرج ذات مساء رفقة ولده قاصدا مقر عمله، فطلب منه رجلان نقلها إلى المستشفى بحجة أن أحدهما مريض فوافق الأستاذ على ذلك :

«لكنه في منتصف الطريق في موقع خال من المساكن...صدر أمر للأستاذ بالتوقف حالا...توقف والتفت ليرى مدعي المرض يضع الخنجر على عنق الصبي...صرخ الابن كالنشيج يسترحم، يستغيث...انفجر الأب مستعطفا لماذا الولد؟...رد عليه الجلاد...لأنك كافر، فاجر، ولا تلد إلا مثلك في الكفر والفجور، انطلقت الرصاصة على صدغه بعد أن شاهد رأس الولد مفصولا عن الجسد ليوضع في تأن على سطح السيارة» 36 .

فهذا عنف غير مبرر مع أنها تتخذ من الدين قناعا تختفي وراءه لتمارس عمليات القتل بحجة الدفاع عنه، ولهذا قامت بقتل الأستاذ نوفل الرحموني وابنه بأبشع طريقة، لا لشيء إلا لأنها تدعي أنه كافر ولا يلد إلا كافرا مثله، حتى أنها تمتع بعملية القتل حيث تشعر بنوع من اللذة وهي تمارس فعلها البشع، بل وتتفنن فيه بوضعها رأس الصبي على سطح السيارة .

يوحي هذا الفعل بأنها تعمل على تحقيق غاية معينة وهي القضاء على العناصر الفاعلة في المجتمع، حيث يعمل الأستاذ على تربية الأجيال الصاعدة والناشئة للنهوض بالبلاد أكثر وهي تحاول طمس ذلك ليعم الفساد وتعطي لنفسها حق الحياة والتصرف في البلاد، مع أنها حرمت الآخرين من حقهم في الحياة. ومثل هذا النموذج يظهر دائما «كغاصب للحقوق، يظل بحاجة إلى ممارسة العنف والإرهاب للمحافظة على وجوده»37. حيث يلجأ إلى هضم حقوق الآخرين حتى يحقق كيانه ويفرض وجوده المستقل.

يظهر من ذلك أن كل الشخصيات التي تعرض لها النموذج المضاد تنتمي إلى الفئة المثقفة التي تعمل على الرقي بالمستقبل في حياة قوامها الحرية والعدل والمساواة والكرامة الإنسانية، ولهذا قام النموذج بوضع حد لمسيرة هؤلاء حتى لا تعرقل أعمالها لأنها تعمل على هدم المجتمع بفرض قراراتها ومواقفها التي تتسم بمظاهر العنف والقسوة. فيظهر هذا النموذج في الرواية «كمغتصب يسلب ويستعبد الإنسان ويمارس جميع الوسائط للضغط على الناس وحملهم على القبول بالأمر الواقع» 38 .

يريد السيطرة على الناس كونه يدعي الحقيقة في حماية المجتمع باسم الدين، وكل من يخرج عن هذا الإطار فهو عاص ويستحق القتل، ومنه نرى أن هؤلاء المثقفين يعيشون مرحلة تاريخية يعانون فيها أزمة الإرهاب أو ما يعرف بالعشرية السوداء.

يبدو أن هذه الشخصية لا تتحمل مسؤولية انتهازيتها وحدها، بل نجد أن البنية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية تتحمل جزءا كبيرا منها 39 .

فلكي تمارس هذه الشخصية انتهازيتها فلا بد من أن تتصل ببنية معينة حتى تحقق غايتها، فتوجهت إلى البنية السياسية كما فعلت مع البطل نجم الدين كونه يحتل منصبا متصلا

بالنظام أو السلطة، فاستغلته للانضمام إليها، وهذا ما فعلته أيضا مع الرائد جعفر لتزويدها بالسلاح، ومع عائلة الحاج محي الدين أيضا بحثا عن ابنه الضابط سليمان لتتخلص منه كونه يعارض مصالحها. وتوجهت إلى البنية الاقتصادية كما فعلت مع عبد السلام مستغلة منصبه كونه المدير العام لشركة التوريد والتصدير لدعمها بالمال، كما توجهت إلى البنية الاجتماعية عندما تعرضت لقتل الأستاذ نوفل الرحموني مع ابنه والصحفي حمدون الأجنف مع أمه .

لنتأكد من «أن هذا النموذج يمثل رمزا للقوى السالبة التي تعمل من أجل اختلال الموازين، وتهديم حقائق قائمة بذاتها لإرساء حقائق بديلة ودخيلة»40 أي إنه يملك قوة ما لا تعرف مرجعياتها يعمل من خلالها على اختلال الموازين السياسية والاجتماعية والأمنية والدينية وحتى الاقتصادية، لتهدّم الحقائق التي تسهم في بناء المجتمع مما يسمح لها ببناء مجتمعها هي، مجتمع قوامه القمع والتطرف والقتل .

وفترة الإرهاب التي تحيل على تسعينيات القرن الماضي، نجد أن الصراع فيها كان صراعا داخليا نابعا من داخل البلاد، حيث أصبح القاتل والضحية جزءا من الذات بانتمائها إلى مجتمع واحد، ووطن واحد، وقد شكل هذا الصراع تصدعا وانقساما في الهوية الجماعية، كونها تعيش أزمة داخلية، بإشاعة الرعب في صفوف المواطنين، بمن فيهم المثقفون الذين طالتهم المطاردة والقتل والاغتيال41 .

فالمنظمة الإرهابية تنبثق من المجتمع الذي تنتمي إليه، وتتخذ من التطرف أسلوبا لها في الحياة، حيث تؤمن بمبادئ تحاول فرضها وترى أنها في خدمة المجتمع، وكل من يخالفها من أفراد المجتمع يدخل معها في صراع، مما يشكل أزمة تحدث انفصالا في هوية المجتمع الواحد، بنشر الرعب وسط المواطنين وخاصة المثقفين الذين تتعرض لهم بالمطاردة والقتل، مثلما حدث –كما رأينا آنفا- مع شخصيات الرواية التي بين أيدينا .

يبدو أن المنظمة تعمل على اختيار العناصر الفاعلة في المجتمع، فتتعرض لهم بالمطاردة والملاحقة أينما ذهبوا، لتكسبهم إلى جانبها وتدعم بهم أعمالها لتضمن استمرارها في الوجود، وتثبت أنها الأقوى لتتمكن من السيطرة على البلاد والقضاء على النظام الذي ترى وجوب محاربته، لأنه سبب في شيوع مظاهر الفساد كالفوضى والارتشاء...لتحل محلها مبادؤها هي

بقيام دولة إسلامية عادلة وذلك بنشر الرعب الذي انجر عنه فعل القتل لأناس أبرياء يسهمون في بناء المجتمع والبلاد كل بطريقته الخاصة ووفقا لمستواه الثقافي .

ومن هنا نلاحظ أن الروائي قد جعل النموذج المضاد في رواية "خطوات " يتمثل في الإرهاب الذي «نصبه للقيام بمهمة القمع وفرض الأمر الواقع...ثم إن التطرف الذي كانت تتسم به قراراته ومواقفه...كان يعطي لشخصيته بعدا استثنائيا ويخول له تلك المكانة الخاصة التي يحتلها ضمن الشخصيات المرهوبة الجانب (المضادة) » 42 .

مما يعني أن كل مظاهر العنف التي تتسم بها المنظمة الإرهابية من قمع وقتل وتطرف وانتهازية يجعلها تدخل ضمن هذه الفئة، ذلك لأنها لا تظهر في النص إلا وهي تقوم بفعل العنف، ولهذا يجوز لنا أن ندخلها ضمن النموذج المضاد .

نستنتج أن الكاتب في تقديمه الحدث الروائي مزج بين الواقعي والمتخيل بتناوله الحدث التاريخي بطريقة فنية بارعة، ولذا كان توظيفه للشخصيات المحورية رئيسيا وفعليا لتنهض بالحدث الروائي، حيث كان محور الصراع يدور بينها لتشكل ثنائية متقابلة الطرفين صُنِّفت وفقا لذلك إلى فئتين أو نموذجين؛ نموذج المناضل، كونه الشخصية المحورية التي تدور حولها الأحداث والمكلف بعملية السرد، ونموذج المضاد الذي يشكل الطرف الثاني في محور الصراع، وهو المعارض للبطل وتمثل عندنا في المنظمة الإرهابية .

الهوامش والمراجع والمصادر:

1- رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط2، 2002، ص 64.

2- ينظر: حميد لحمداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2000، ص 25 .

3- ينظر: المرجع نفسه، ص 33، 52.

4- ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2009، ص 215، 216.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص 355، 336.

6- ينظر: فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار كرم الله، الجزائر،(ط د)،2012، ص 29، 30، 31.

7- بشير بويجرة، الشخصية في الرواية الجزائرية 1970-1983، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دط)، (دت) ص 70.

8- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 272.

9- ينظر: إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي، دار الرائد، الجزائر، ط1 2005، ص 356.

10- حفناوي زاغز، خطوات في الاتجاه الآخر،دار هومه، الجزائر، (دط)، 2004، ص8.

11- الرواية ، ص 95.

12- نفسه، ص 57، 58.

13- ينظر: صالح ولعة، عبد الرحمن منيف الرؤية والأداة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2009، ص 114.

14- حسن الأشلم، الشخصية الروائية عند خليفة حسين مصطفى، مجلس الثقافة العام، سرت، (دط)، 2006، ص 299.

15- الرواية ، ص .76
16- نفسه، ص 77، .78
17- ينظر: إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، ص .362
18- ينظر: حسن الأشلم، الشخصية الروائية عند خليفة حسين مصطفى، ص .299
19- الرواية، ص .156
20- الشريف حبيلة، الرواية والعنف، عالم الكتب الحديث، إربد،ط1،2010، ص .148
21- ينظر: إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، ص 382، .383
22- الرواية، ص 8، .9
23- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص .279
24- ينظر: حسن الأشلم، الشخصية الروائية عند خليفة حسين مصطفى، ص 181.
25- الرواية، ص .118
26- ينظر: الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص .168
27- الرواية، ص .86
28- إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، ص.383
29- الرواية، ص 149، .150
30- ينظر: الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص .234
31- الرواية، ص 124، .125
32- نفسه، ص .125
33- نفسه، ص 126، .127
34- نفسه، ص 147، .148
35- ينظر: الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص 260، .263
36- الرواية، ص .146
37- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 299.
38- المرجع نفسه، ص .295

39- حسن الأشلم، الشخصية الروائية عند خليفة حسين مصطفى، ص .251
40- إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، ص .387
41- ينظر: بوشعيب الساوري وآخرون، الهوية والتخييل في الرواية الجزائرية، رابطة أهل القلم، سطيف، ط1، 2008، ص 49.
42- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 298.